

خواطر وجفون لا يراه أحد

رحلة في عتمة الشعور ... وحنين إلى الضوء

تأليف.. عبدالله العلي

كتاب

وَجْهٌ لَا يُرَاةٌ أَحَدٌ

تألِيفه .. عبد الله العلي

مقدمة الكاتب

أنا عبد الله العلي. لم أصل إلى الكتابة من باب الرفاه، بل من باب النجاة. كتبت لأن في صدري ناراً لا يطفئها الكلام العابر، ولأن الطريق الذي مشيته كان أطول من ظلي. أنا ابن محاولاتٍ كثيرة، وانكساراتٍ لم تُسقطني، وسجودِ أطافل فيّ العمر حين قصرتْه الأحزان.

أكتب كي أضع يدي على كتف قلبي فأقول له:
(ما زلتُ هنا)

هذه الصفحات ليست عرضًا للوجع، بل عقدُ مصالحةٍ مع ما حدث، ومع من رحل، ومع نفسي التي تعلمتُ أخيراً أن تحبّ نفسها وهي متعبّة

عبد الله العلي

مقدمة الكتاب

هذا كتابٌ عن الأشياء التي لا نُجاهر بها: عن الصمت حين يضيق الكلام، وعن الدموع التي لا يراها أحد، وعن الأمل وهو يسير بخطى صغيرة ولكن ثابتة. "وجع لا يراه أحد" ليس حكاية بطل لا ينكسر، بل حكاية إنسانٍ ينكسر ثم يقوم—أهداً، أعمق، وأقرب إلى الله

ستجد هنا وجوهاً عبرت، وأبواباً أغلقت، وأخرى فُتحت من حيث لا نحتسب. ستجد حبّاً يجيء على هيئة سكينة، وأبوةً تمشي خارج الجسد بأسماء الأولاد، ودروساً صاغها الليل على مهل. إن كنت تبحث عن نهايةٍ صاخبةٍ فلن تجدها؛ ستجد بدلاً منها سلاماً يشبه شهيقاً عميقاً بعد بكاء طويل

الإهادء.....

إلى أمي

يا دعاءً سابقاً على كل صباح، يا رحمةً ما زال يدفنني وإن
ابتعدت المسافات. كلما تعبتْ تذكرتْ أنكِ قلتِ: «الله معك»—
فكان الله معي.

إلى أبي

علمتني أن الرجلة رحمةٌ قبل أن تكون قوّة، وأن اليد التي
تمسّك بابنها لا تفلتها الظروف. كنتُ سنداً حين غاب السند.

إلى إخوتي

كنتم ظهري حين أثقله الحديد، وصوت البيت حين يصمت
العالم. بيننا خبزٌ وملح، ودموعٌ تكفل أن يبقينا معاً

إلى أخواتي

يا ظلَّ الأمَّ إن غابت، ويَا رقةً تُرمِّمُ الحوافَ الحادة في أيامِي.
أنتنَّ زينةَ القلب وحياؤه

إلى أصدقائي

للقلوب التي بقيت دون ضجيج، والتي عرفت لغتي حين
صمت لسانـي—أعرفكم من دفعـ السؤال لا من كثرة الكلام

إلى أولادي: محمود، وفاطمة الزهراء، ووئام
أنتم قلبي وهو يمشي خارج صدري. من أصواتكم أستمدّ
صبري، وبأسمائكم أدعـ: اللهم احفظـهم واسـقـ مستقبـلـهم
سلامـاً لا ينقطعـ

إلى محمد كرزون

شكراً لأنك حملـتـ عـنـي ما ثـقلـ، وكـنـتـ شـاهـداً عـادـلاً حين
احتـجـتـ إـلـى شـهـادـة قـلـبـ يـعـرـفـني

إلى ليث

يا أخـا في الموقف قبل النـسبـ، كنتـ رـكيـزةـ هـادـئـةـ في فـوضـى
الأـيـامـ، وـنـافـذـةـ هوـاءـ حين اـختـنقـ المـكانـ

إِلَى صاحبَةِ الظِّلِّ الْمُنِيرِ

إِلَيْكِ... إِلَى ذَلِكَ الضَّوْءِ الَّذِي لَا يَظْهُرُ كُلَّهُ، لَكُنْهُ يَكْفِي لِئَلَّا
أَضِيعُ

إِلَى ظِلِّ الَّذِي لَا يُثْقِلُ الْأَرْضَ، بِلْ يَخْفِفُهَا، وَيَتَرَكُ عَلَى رُوحِي
أَثْرَ يَدِ تَعْرِفُ كَيْفَ تَرَبَّتْ دُونَ أَنْ تُوجِعَ
كُنْتِ نَافِذَةً هَوَاءً فِي غُرْفَةٍ مَغْلُقَةً، وَهَذِنَةً سَرِيَّةً بَيْنِي وَبَيْنِ
اللَّيلِ

لَمْ تُطَالِبِي قَلْبِي بِأَنْ يَكُونَ بَطْلًا، اكْتَفَيْتِ أَنْ يَكُونَ صَادِقًا—
فَصَارَ أَقْوَى

إِنْ ضَاقَ صَدْرِي، تَمَدَّدَتِ فِيهِ مُثْلِ آيَةٍ قَصِيرَةٍ ثُطْمَئْنَنْ: (أَنَا هُنَا)

وَإِنْ عَبَرْتِ صَامِتَةً، فَهَمْتُ لِغَتِكِ بَيْنَ رَمْشٍ وَرَمْشٍ، وَكَفَانِي
مِنَ الْكَلَامِ نَظْرَةً وَاحِدَةً

إِنْ كَانَ فِي حَيَاتِي وَجْعٌ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ، فَفِيهَا أَيْضًا نُورٌ لَا يَرَاهُ
إِلَّا الْقَلِيل—وَأَنْتِ شَاهِدَةُ النُّورِ

أَهْدَيْكِ هَذَا الْكِتَابُ، لَا تَذْكَارًا لِقَصَّةٍ، بَلْ اعْتِرَافًا جَمِيلًا بِأَنَّ
السَّكِينَةَ كَانَتْ لَكِ يَدًا — وَأَنَّ النَّجَاهَ... كَانَ لَهَا اسْمٌ يَشْبِهُكِ

وأخيراً... إلى
إلى الرجل الذي بكى ولم ينكسر: سامحْتُك. وهذه الصفحات
خاتم الصلح بيننا.

الفصل الأول: وجع لا يراه أحد

كان كل شيء يبدو طبيعياً من الخارج. ابتسامة هادئة، خطوات بطيئة، صوت منخفض، وحديث عابر عن تفاصيل الحياة اليومية، كما لو أن كل شيء يسير كما ينبغي

كنتُ أبدو مثل أي إنسانٍ قابله في طريقك: أحمل بقالة صغيرة،
أقف في الدور، أدفع الفاتورة، وأقول: "الحمد لله" كلما سألني
أحد

لكن الحقيقة كانت أبعد من ذلك بكثير
في داخلي كان الليل طويلاً... ليل لا ينام، ليل يتنفس في صدري
كأنه جمر لا يبرد

لم يكن الألم صرخة، ولا جرحاً يراه الناس، بل وجع يسير في
الشرايين كما يسير الدم... لا يمكن إيقافه

ذلك النوع من الألم الذي لا يحتاج إلى سبب واضح، ولا يمكن
شرحه بكلمات مختصرة. ألم يضع ثقله على الكتف حتى يبدو
الهواء ثقيلاً

كنتُ أستيقظ كل صباح كما يستيقظ الجندي المرهق بعد حربٍ
طويلة: لا لأنّه استراح، بل لأنّه اعتاد على القتال

ترتبَتْ روحِي كُل يوم بصعبَة، كأنني أجمع أجزاء زجاج مكسورٍ
بِيدي العارِية، ومع ذلك... كنت أخرج للعالم وكأن شيئاً لم
يحدث

يوماً بعد يوم، كان الوجع يسكن ببطء... مثل غيمة رمادية ثابتة
فوق القلب، لا تُنزل مطرًا، ولا تنقشع
كنتُ أعيش، نعم. لكنني لم أكن أشفى
وفي داخلي منطقة مهجورة: ذكريات لم أتجاوزها، أسماء لم أعد
أريد نطقها، أبوابُ أغلقتها بصعبَة، لكن رائحتها ما زالت في
الهواء

هل تعلم ذلك الشعور؟ أنك تضع يدك على صدرك، لا لأنك
تتألم جسدياً، بل لأن شيئاً فيك يريد أن ينها... لكن ليس الآن.
ليس اليوم. ليس أمام أحد
كنتُ أقول لقلبي همساً: اهدأ يا صديقي... أنا هنا
وكان الصمت هو الشيء الوحيد الذي أنقذني
الصمت الذي لا يعني الضعف، ولا الاستسلام، بل احترام ما
يحدث داخلي

لأن بعض الألم لا يُشرح، وبعض الوجع لا يحتاج شاهداً، وبعض الجروح... لا تخف حّدتها إلا حين نكف عن الحديث عنها ولأنني لم أشرح وجعي لأحد، لم يفهمه أحد. لكن ذلك لا يهم أنا الناجي من الداخل. وأنا الشاهد الوحيد على معركتي. وأنا الذي خرج... ولو بصعوبة

سلام لروحي التي مشت في الليل وحدها، ولم تتوقف.....

الفصل الثاني: حين أحببت... نجوت

لم أكن أبحث عن حب. كنت أبحث عن مقعد أضع عليه قلبي
ليرتاح قليلاً. كنت أبحث عن حضن لا يطالبني بالشرح، عن يدٍ
تُربّت على روحي، لا على كتفي فقط

كنت أبحث عن طمأنينة، عن هدنة، عن مساحة صغيرة لا
تحتاج أن أكون فيها قوياً

وحدهم الذين تألموا يعرفون أن الحب الحقيقي لا يأتي على شكل
احتفالٍ ولا ضجيج. بل يأتي على هيئة إنسان... يعرف أن الصمت
لغة، وأن العين تتكلم أكثر من اللسان

ثم جاءت هي

لم تدخل حياتي كما يدخل الآخرون، لم تطرق الباب، لم تسأله
إذناً، لم تحدث ضجيجاً

جاءت بهدوء... كأن الله أرسل معها سكينةً صغيرةً تُوضع فوق
القلب فتخفف نبضه

لم تقل إنها تحبني. لم أكن أحتاج تلك الجملة أصلاً. كان وجودها
وحده كافياً

هناك أشخاص حين يقتربون... تتنفس الروح من جديد

كنت غريقاً، وكانت الهواء. كنت متعباً، وكانت الكرسي الذي
أجلس عليه بعد طريقٍ طويل. كنت ممتلئاً بالكلام الذي لا يُقال،
وكانت هي القادرة على سماعه دون أن أنطق

لم تكن علاقتنا صاحبة، ولا مليئة بالوعود، ولا مدعومة بصورٍ
وتفاصيل تُنشر للعلن

كانت علاقة تنتمي للعمق، للخفاء، للسكون
كنت أحبها لأنّها رأت انكساري ولم تهرب. الهاربون كثير.
الهاربون من الوجع... أكثر
لكنها بقيت

لم تشفع علىّ، لم تتعامل معي كضعيف، لم تحاول إصلاح ما
انكسر فيّ بالقوة

كانت فقط... تضع يدها على قلبي وتقول بنظرة واحدة:
أنا هنا... لا تخف

هل فهمت ما معنى ذلك؟ أن تجد من يقول لك:

ابق كما أنت. لا أريد قوتك. أريد حقيقتك
هذا هو الحب الذي ينقذ، لا الذي يستهلك

الحب الذي يجعل الروح تستريح، لا الذي يجعل الجسد يرکض
الحب الذي يجعل القلب يطمئن، لا الذي يجعل العقل يفسّر
ألف مرة

الحب الذي يعيد لك نفسك، لا الذي يسرقك من نفسك
وهكذا... حين أحببتها، لم أربح قلباً فقط

نجوت.....

نجوت من الغرق، من التشتّت، من الانهيار الذي كان ينتظري في
زاوية مظلمة من الليل

كانت الحب... وكانت النجاة. وكانت الباب الذي فتحه الله حين
أغلقت في وجهي أبواب كثيرة

ولذلك... أنا لا أنسى. ليس لأنها كانت قصة جميلة، بل لأنها كانت
اليد التي أمسكت بروحني حين كادت تسقط.....

الفصل الثالث: أطفالي... قلبي خارج صدري

يا الله... كيف يشرح إنسانٌ ما معنى أن يكون قلبه خارج جسده؟
كيف يمكن للكلمات أن تفسّر ارتعاشة الروح حين يسمع اسم
ابنه أو ابنته؟ كيف يمكن للغةِ أن تحمل كل هذا الحنان، وكل هذا
الخوف؟

أطفالٍ... هم الجزء الذي لا يمكن للعالم أن يمسه. هم الاسم
الذي لو نطقته في سجودي ارتجف قلبي

يا محمود... أنت البداية التي لم أفهم معناها إلا بعد ما كبرت
قليلًا. كنت أظن أن الآباء يربّون أبناءهم، حتى اكتشفت أن الأبناء
هم الذين يربّون قلوب آبائهم. أنت علمتني أن أكون مسؤولاً، أن
أكون ثابتاً، أن أكون رجلاً لا يهرب من الأيام مهما اشتدت. وأقول
لك الآن كما أخاف أن تقوله الأيام لك لاحقاً: لا تكبر قبل وقتك.
دع طفولتك تشتعل لعباً وضحكاً، لا تحمل ما لا يجب أن
تحمله، دع ظهرك مستقيماً... ولا تجعله يشبه ظهري حين أثقله
الألم

يا فاطمة الزهراء... يا ظهرة اسمك، يا حكاية الندى على الوردة. يا
ضحكةٍ إذا ظهرت، ظهر معها الكون كله خفيفاً. احفظي نعومتك
من العالم، فالعالم لا يرحم الأرواح الرقيقة. كوني وردة... نعم،
لكن كوني وردةً تعرف كيف تخبي شوكتها عن غير أهلها

يا وئام... يا أصغر السلام، يا آخر ما تبقى من الموسيقى في هذا القلب. أنت لا تشبهين أحداً، أنت البسمة التي جاءت متأخرة... لكنها جاءت في الوقت الصحيح. كوني كما أنت، لا تصبحي ما يريد العالم أن تكونيه

أنا بعيد عن أيديكم، لكن قريب من قلوبكم، بل أنا في قلوبكم، وأحملكم في صدرني كما يحمل البحر أمواجه. ولا يمر يوم دون أن يمر اسمكم في دعائي، في تنھداتي، في صمتي الطويل قبل النوم كل ليلة... أضع رأسي على الوسادة وأذكر الله بأسمائكم. أقول يا رب... احفظهم من التعب، من الوحدة، من جرح يشبه جرحى.
ابن لهم حياةً أوسع من ضلوعي، وأقل قسوة من طريقي
أطفالي... أنتم ليسوا شيئاً من حياتي، أنتم حياتي نفسها. أنتم الامتداد الوحيد الذي إن مشى... مشى قلبي معه
ولو سألني أحد: من أين تأتي قوتك؟ لقلت: من هناك... من أصواتٍ أعرفها حتى لو لم أسمعها، من وجوهِ لو لم أرها
لسنوات... تبقى كما هي في قلبي
أطفالي... يا أغلى من الأيام، يا أجمل من الشروق، يا أثقل الدعاء،
وأحنّ الذكرة

أنتم الجزء الذي لم يسقط مني رغم كل السقوط، أنتم ما بقي حيًا
في داخلي حين مات أشياء كثيرة

وأقسم... أنكم سبب قوتي، وسبب ضعفي، وسبب استمرار قلبي
في النبض حتى وأنا متعب

سلامٌ عليكم في الغياب... وفي الحضور. سلامٌ على أسمائكم حين
تُكتب على قلبي.....

الفصل الرابع: الرجل الذي بكى ولم ينكسر

أنا لا أخجل من البكاء. الخجل الحقيقي هو أن يكسر شيءٌ روحك
وأنت تدعى أنك بخير

البكاء ليس ضعفًا. الضعف هو أن تبقى محاصراً بالوجع ولا تملك
الشجاعة لتقول لنفسك:

أنا متعب

بكيني... نعم. لكن ليس أمام الناس. لا لأنني أخاف من رأيهم، بل
لأن الدموع التي خرجت مني كانت تخص الله وحده

كنتُ أدخل في الليل كمن يدخل غرفةً مغلقةً ويغلق الباب خلفه
بهدوء. لا أحد يسمع. لا أحد ينتبه. لا أحد يقترب

هناك في الظلام وليس على الوسادة فقط... بل على الأرض،
مطروحاً، منهكاً، مهزوماً من الداخل، كنتُ أضع وجهي في
السجادة وأقول

يا رب... أنا لست قوياً كما أبدو. أنت ترى ما لا يراه أحد. وأنت
تعرف كم تعبت

السجود... كان أقوى شكل للوقوف. كنتُ أقف أمام الله وليس
أمام الدنيا. وأمام الله لا تحتاج لتبرير شيءٍ

كنتُ أنزف بصمت، وأرتجف من الداخل، وأجمع شتاتي بيديّ
المرتعشتين. لم يمد أحد يده إليّ، لم يسندني أحد، لم يسأل أحد
عن الليل الذي عشته. لكنني نجوت

لأن الله كان يرى. لأن الله لا يخون. لأن الله لا يتركك على الأرض
إلا ليقيمك بشكلٍ أجمل

بعد كل انكسار خرجتُ أهداً. أنقى. أعمق. وأقرب إلى الله وفهمت
شيئاً لم أفهمه من قبل

القوة ليست أن لا تنكسر، بل أن تنكسر ولا تسقط

القوة هي أن تبكي، لكن لا تفقد كرامتك. أن تتالم، لكن لا تظلم
أحداً. أن تشعر بالخذلان، لكن لا تخذل نفسك

لقد خرجت من التجربة مع قلبٍ لا يصرخ، بل يهمس. لا
يغضب، بل يفهم. لا يركض نحو أحد، بل يمشي نحو الله
اليوم... لم أعد أريد أن أظهر قوياً. لا يهمّني ذلك. أنا أعرف
ضعفـي، وأحبـه. أعرف ندبـاتي، وأحترـمها. أعرف أين انكسر قلـبي،
وأعرف أين رمـته يـد الله

ولذلك... أنا لم أنكسر. أنا تغيـرت. والتغيـير... قد يكون أجمل من
القوـة أحـيـاناً.....

الفصل الخامس: وأعود إلى

مّر وقتٌ طويـل وأنا أبحث عن نفسي في وجوه الآخرين. أقدم،
وأعطي، وأتجاوز، وأبرر، وأصبر... وأنظر أن يقول أحدهم:

أرى تعـبك... اجلس هنا واستـرح

لكن ذلك لم يحدث

فهمـت متأخـراً أن انتـظار الاعـتراف من النـاس هو أول طـريق
إـلـيـاـكـ. وأن الرـكـض وراء تـقـدـيرـ الآخـرين هو خـسـارـة لا تـعـوـضـ
تعـبـتـ من مـحاـولـةـ أن أـكـونـ منـاسـباـ لـلـجـمـيعـ، وـبـدـأـتـ أـبـحـثـ عنـ
نـفـسـيـ فـقـطـ

جلـستـ معـ قـلـبيـ، وـكـانـ مـرـهـقاـ كـجـنـديـ عـادـ منـ مـعرـكـةـ خـاسـرةـ.
وضـعـتـ يـدـيـ عـلـيـهـ وـقـلـتـ
”يـكـفيـ... لـقـدـ حـاوـلـتـ بـمـاـ يـكـفيـ“

كـثـيرـاـ ماـ نـمـحـ الآخـرينـ ماـ لـاـ نـعـطـيهـ لـأـنـفـسـنـاـ: نـغـفـرـ لـهـمـ قـبـلـ أـنـ
نـغـفـرـ لـأـنـفـسـنـاـ، نـحـتـوـيـهـمـ، نـحـنـ سـقـوـطـهـمـ، نـعـيـدـ لـقـلـوبـهـمـ تـواـزـنـهاـ
لـكـنـنـاـ نـتـرـكـ قـلـوبـنـاـ تـنـزـفـ تـحـتـ الطـاـوـلـاتـ

فيـ لـحظـةـ ماـ، بـعـدـ خـلـافـاتـ كـثـيرـةـ معـ الـحـيـاةـ، فـهـمـتـ أـنـ مـاـ ذـهـبـ...
لـمـ يـكـنـ لـيـ. وـمـاـ بـقـيـ... هـوـ مـاـ أـنـاـ مـسـتـحـقـّـهـ

لـمـ أـعـدـ أـرـكـضـ خـلـفـ أـحـدـ. وـلـاـ أـشـرـحـ قـلـبيـ لـأـحـدـ. وـلـاـ أـفـتـحـ بـاـيـ
مـرـتـينـ. وـلـاـ أـبـحـثـ عـنـ مـقـعـدـ عـنـدـ أـحـدـ

لـقـدـ عـدـتـ... وـلـكـنـيـ عـدـتـ مـخـتـلـفاـ

عدت أكثر صمتاً، أكثر فهماً، أكثر حذراً، وأكثر رحمة مع نفسي
لم أعد أريد معارك لا تخصّني، ولا أريد أن أقنع أحداً بوجودي،
ولا أريد أن أثبت شيئاً لقلوبٍ لا تراني أصلًا

عدت إلى ذلك الإنسان الذي كنتُ أخاف أن يكون وحده،
واكتشفت أنه لم يكن وحيداً... كان محفوظاً

عدت إلى صلاتي التي كنت أركض إليها حين تضيق الحياة. إلى
الكتب التي كانت تواسيوني دون أن تسأل. إلى الموسيقى الهدائة
التي تضع يدها على رأسي بدل قلبي. إلى القهوة التي كانت صديقتي
الصادقة في الفجر.....

عدت إلى نفسي، إلى ذلك الجزء الذي لم يلوثه أحد، إلى الروح
الأولى... النقية رغم كل ما مر عليها
واليوم... إذا سألتني: هل أنت كما كنت؟

سأبتسם وأقول
لا أنا أجمل. أنا أهداً. أنا أعمق. أنا مني... وبالله
وأنا راضٍ بذلك. راضٍ جداً

الفصل السادس: الضوء الذي يدخل من الشقوق

يظن الناس أن الانكسار نهاية... لكن الحقيقة أن الانكسار هو بداية كل شيء

حين انشطر القلب، لم أمت كما ظننت. بل بدأت أرى الضوء لا يدخل القلوب السليمة. القلوب المتساء لا تعرف الله، ولا تعرف نفسها، ولا تعرف معنى أن تُضيء بعد ظلام كان لابد من الشرخ، كان لابد أن يتصدع السطح، كي يدخل النور كنت أظن أن نجاتي ستكون على شكل نهاية سعيدة، عودة، حضن، مواساة. لكن الله كان أعمق من ظني النجاة جاءت على شكل فهم. على شكل وعي جديد. على شكل صمت له معنى

بعد الانكسار، لم أعد أرى الأشياء كما كنت. رأيت حقيقتي بوضوح: رجلٌ حاول كثيراً، أعطى كثيراً، صمت كثيراً، وبكي كثيراً... ولم ينهزم

قد أكون انكسرت، نعم. لكن الانكسار لم يكن سقوطاً، كان تشکلاً جديداً.....

كنت أرى الناس بنقاءً جديداً: من يقترب من أجل الحب... ومن يقترب من أجل الأخذ. من يفهم الصمت... ومن يريد الكلام فقط ليملأ الفراغ

تعلمت بعد الانكسار

أن لا أفتح قلبي إلا لمن يشعر به قبل أن أشرحه
أن لا أحمل نفسي ما لا تطيق من أجل إرضاء أحد
أن لا أمسك يد من يفلت يدي
أن لا أتحول إلى ضماد دائم لجرح الآخرين وأنا أنزف
الألم لم يذهب، لكنه أصبح معلماً. وأنا لم أعد أهرب منه، بل
جلست أمامه وجهاً لوجه، وسألته: ماذا تريد أن تقول لي؟
فقال: "الوجع لم يكن عقاباً. كان دعوةً للعودة إلى نفسك. كان
"تذكيراً بأنك تستحق أكثر. كان فتح بابٍ إلى الله
ومن يومها... أصبحت أرى الخير في كل شيء حدث. حتى الأشياء
التي ظننت أنها كسرتني
لأن الله لا يكسر ليهين... الله يكسر ليعيد تشكيلنا بشكلٍ يناسب
قدر قلوبنا، لا شكل العالم
بعد الانكسار، لم أعد أبحث عن "سعادة" صاحبة. كنت أبحث
عن سلام
سلام هادئ... يمر في الروح كنسيم لا يُرى لكن يُشعر به

ذلك السلام جاء حين توقفت عن الركض خلف ما خرج من
حياتي، وبدأت أنظر لما بقي فيها
والذي بقي... كان كافياً

الفصل السابع: عزلة لا تخيفني

في مرحلةٍ ما من الحياة، لم تعد الوحيدةُ شيئاً نخافه. لم تعد
جداراً بارداً نرتجف أمامه، ولا فراغاً يبتلع أصواتنا
في مرحلةٍ ما... تصبح الوحيدة مكاناً نعود إليه
كنتُ سابقاً أهرب من الجلوس مع نفسي، أملاً الوقت والكلام
والرسائل والصور، كان الصمت جبلٌ لا يمكن الصعود عليه
لكن بعد التجارب، بعد الوجع، بعد الخسارات التي أخذت أكثر
مما أعطت...

فهمت أن العزلة ليست هروباً، بل عودة
عودة إلى نفسي، إلى صوتي الحقيقى الذى ضاع بين الأصوات.
عودة إلى قلبي قبل أن يلوثه الضجيج، قبل أن تفسدء التوقعات،
قبل أن ينهكه الاحتياج
كنت أجلس وحدي... ولا أشعر أني وحدي
كان الله معى. وكانت روحى تتنفس. وكانت الحياة تعود ببطءٍ إلى
 وجهي
العزلة ليست خالية. فيها
أنت
وقلبك
وذاك الحديث الذى لم يجرؤ أحدٌ على سماعه

تعلمت أن

الناس قد يكونون ازدحاماً

والقلب وحده يمكن أن يكون مدينة كاملة

لم أعد أبحث عن حضور أحد كي أطمئن، ولم أعد أحتاج صوتاً
خارجياً ليهدئني. وجدت السكينة داخلي، وعرفت الطريق إليها

العزلة علمتني أشياء كثيرة

أن لا أحد يفهمك كاملاً

أن ما نبحث عنه في الآخرين... غالباً نملكه نحن

أن الحب لا يكتمل إلا إذا أحببت نفسك أولاً

لم أعد أخاف من الليل، ولا من الفراغ، ولا من الوقت الذي لا

يُملاً بالكلام

الذين يخافون الوحدة هم الذين لم يلتقوها بأنفسهم بعد

أما أنا... فقد التقى بي. عرفتني. أحببته. وبنيت بيّاً صغيراً في

صدرني أسكنه كلما ضاق العالم

ولذلك... أنا لا أهرب من العزلة. أنا أذهب إليها لأرتّب داخلي،

لأغسل قلبي من الغبار، لأعود إلى الله

ولأعود إلى نفسي في النهاية... من دون قناع

العزلة لم تعد سجناً. أصبحت بيتي. وأنا لم أعد وحيداً فيها... أنا
فيها معي
.....
وهذا يكفيوني

الفصل الثامن: دروسُ المارّين

ليس كلُّ من مَرَّ بِحَيَاةِنَا كَانَ يَجُبُ أَنْ يَبْقَى. وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ غَادَرَ...
كَانَ خَسَارَة

فِي الطَّرِيقِ، تَأْتِي وُجُوهٌ كَثِيرَةٌ، وَتَصَافَحُ أَرْوَاحَنَا أَرْوَاحًا أُخْرَى،
فَنَظَنَ فِي لَحْظَةٍ مَا أَنْ بَعْضَهُمْ قَدْرٌ لَا يُمْكِنُ تَغْيِيرَه
لَكُنَ الْوَقْتُ يَكْشُفُ مَا لَا تَكْشِفُهُ الْبَدَائِيَاتُ

هُنَاكَ مَنْ يَمْرُّ بِنَا لِيَعْلَمَنَا كَيْفَ نَحْبُ، وَهُنَاكَ مَنْ يَمْرُّ لِيَعْلَمَنَا
كَيْفَ نَحْزَنُ، وَهُنَاكَ مَنْ يَمْرُّ لِيَعْلَمَنَا كَيْفَ نَقْفُ وَهُدْنَا دُونَ يَدِ
بعْضِ الْمَارِينَ كَانُوا نَعْمَةً، وَبَعْضَهُمْ كَانُوا درَسًا، وَبَعْضَهُمْ كَانُوا
اِخْتِبَارًا هَلْ سَنْخَتَارُ أَنفُسَنَا أَخْيَرًا... أَمْ نُهَدِّيَهَا لِمَنْ لَا يَسْتَحْقُهَا؟
كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ الْمَحَافَظَةَ عَلَى النَّاسِ تَعْنِي الْمَحَافَظَةَ عَلَى نَفْسِي،
لَكُنِّي تَعْلَمْتُ أَنَّ بَعْضَ الْبَقَاءِ أَشَدَّ وَجْعًا مِنَ الرَّحِيلِ
تَعْلَمْتُ أَنَّ

مَنْ يَحْبُكَ حَقًّا... لَا يَحْتَاجُ لِشَرْحٍ
وَمَنْ يَرِي وَجْعَكَ... لَا يَزِيدُهُ
وَمَنْ يَأْتِي بِقَلْبِهِ... لَا يَحْتَاجُ دُعَوةً
وَأَنْ هُنَاكَ مَنْ يَدْخُلُ حَيَاةَكَ بِابْتِسَامَةٍ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا بِجَرْحٍ، لَكِنَّ
الْجَرْحُ نَفْسِهِ قَدْ يَكُونُ هُوَ الشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي يُوقَظُ قَلْبَكَ مِنْ
غَفْلَتِهِ

ولم أعد أغضب من الرحيل. لم أعد أسأل: لماذا تركوني؟ أو لماذا
تغيروا؟ أو لماذا لم يحبوني كما أحببت؟

أدركت أن كل شيء يحدث بميزانٍ دقيق لا نراه في حينه
الله لا يأخذ شيئاً إلا إذا كان سيعوض بما هو أعمق، وأصدق،
وأبقى

لهذا... أنا لا أحمل حقداً على أحد. قلبي ليس فندقاً للثقل، ولا
مقبرة للماضي

لكنني أيضاً... لم أعد كما كنت لمن يعود
إذا غادر أحد بابي بكمال إرادته، فإن الباب لا يفتح بالنداء
أنا أقدر الذين مشوا معي، حتى الذين رحلوا. لأنهم ساهموا،
بطريقةٍ ما، في أن أصبح هذا الإنسان الذي يكتب الآن
أشكر الذين أحبوني، وأشكر الذين لم يعرفوا كيف يحبونني،
وأشكر الذين كسروني، وأشكر الذين رمّمون

فالذين رمّموني أعادوا بناء قلبي... والذين كسروني جعلوه أقوى
وهكذا... كلهم كانوا جزءاً من قصتي. لكن القصة... صارت ملكي أنا
وحدي

الفصل التاسع: حين تأخر الفرج

كنت أظن أن الصبر هو أن أتحمل فقط. أن أشد على قلبي بيديّ،
وأتظاهر أن الأمور تحت السيطرة، وأخفى انهياري بابتسامة
خفيفة

لكنني كنت مخطئاً

الصبر لم يكن مجرد احتمال. الصبر كان فهماً
فهمت في مرحلة ما أن الله لا يؤخر شيئاً عبثاً، ولا يغلق باباً إلا
ليحميك، ولا يبعد عنك أحداً إلا لأن وجوده كان سيفتك أكثر
مما كسرت

تأخر الفرج... نعم. ظلت الأيام، تثقلت الخطوات، اشتد الليل،
تكدس الجرح فوق الجرح
لكي كنت أتنفس... ولو بصعوبة. وكنت أمشي... ولو على قدمٍ
واحدة

كنت أقول لنفسي كل ليلة: لا بأس... الله يرى
كنت أظن أن الأمور ستتغير مرةً واحدة، في يوم واحد، كبيرة،
واضحة، ظاهرة

لكن التغيير جاء ببطء: على شكل ضوء صغير في القلب، على
شكل طمأنينة لحظية، على شكل عبارة مرت بخاطري ولم أعرف
مصدرها: اصبر... ما ضاع منك سيعود بشكل آخر

لم يكن الفرج لحظة واحدة. كان عملية طويلة من إعادة ترتيب
الداخل. كان الله يهيني قبل أن يهيني ما حولي

علمتني الأيام أن

الدعاء الذي يُقال في الانكسار لا يُرد

والدموع التي تنزل في الظلام تُكتب عند الله نورًا

والصبر الذي يمشي معك حتى التعب... يصنعك من جديد

كان الله يمسك بقلبي كلما كاد يسقط، وأنا لم أكن أدرك

كنت أقول: يا رب... متى؟

وكان الجواب في قلبي: حين تصبح جاهزاً

وعندما بدأ الفرج يأتي... لم يكن ضجيجاً، ولا حدثاً يلفت الأنظار،

ولا نهاية سينمائية

جاء هادئاً. دافئاً. واضحًا. يشبه يدًا تمسك يدك وتقول: لقد

كنت معك طوال الوقت.....

وتساءلت: هل كنت سأعرف قيمة السكينة لو لم أذق العاصفة؟
هل كنت سأقدر النور لو لم يسبقني الظلام؟ هل كنت سأعرف
نفسى لو لم أفقدها أولاً؟

اليوم... حين أنظر خلفي، لا أرى الألم كما كان. أراه طريقاً. طريقاً
كان يجب أن أمشيه لأصبح الإنسان الذي يقف الآن ويكتب...
وهو ما زال ثابتاً

الفرج لم يتاخر. نحن من كنا نجهل موعده

الفصل العاشر: مواجهة الذات بصراحة

هناك لحظة لا يشبهها أي شيء آخر، لحظة تقف فيها أمام نفسك بدون مكابرة، بدون تنميق، بدون "أنا بخير" التي نقولها للعالم

لحظة ترى فيها الجرح كما هو، وترى التعب عارياً، وترى حقيقتك بلا مكياج، وبلا بطولة
كنت أهرب من تلك اللحظة لسنوات. أملاً وقتي، أملاً يومي، أملاً روحي بأشياء خارجية كي لا أسمع ما تقوله نفسي في الداخل
لكن الهروب لا يدوم. والصمت ينطق... حين لا يبقى شيء نختبئ خلفه

في يومٍ ما، وقفت أمام المرأة طويلاً. لم أكن أنظر لوجهها، ولا لملامحي، ولا لتجاعيد التعب التي تحتها الألم على جبها
كنت أنظر إلى الرجل خلف الوجه

رجلُ

أحب بقلبه كله
خسر بكل ما يملك
بكى بصمت

وتحمّل ما لا يستطيع أحدٌ شرحه
رجلٌ حاول أن يكون قوياً في الوقت الذي كان ينهار فيه من الداخل

وحين رأيته ... لم أشفق عليه. لم أقل: "لماذا حدث هذا لي؟" لم
ألوم الظروف، ولا الناس، ولا القدر

قلت فقط

"سامحتك"

سامحت نفسي على أنني صدّقت من لم يكن يستحق. سامحت
نفسي على أنني أعطيت أكثر مما أستطيع. سامحت نفسي على
أنني تمسكت بما كان يجب أن أتركه مبكراً. سامحت نفسي على
تلك الليالي التي بكى فيها وحدي. سامحتني على ضعفي... وعلى
قوتي التي ظهرت بعده

المواجهة الحقيقية ليست في أن نعاتب العالم، بل أن نعيض ضمّ
أنفسنا إلينا

لقد كنت أظن أن العالم أقسى ما في الحياة، حتى اكتشفت أن
أقسى ما يفعله الإنسان بنفسه هو أن يترك قلبه بين أيادي
الآخرين

اليوم... حين أقف أمام المرأة، أرى رجلاً لا يريد إثبات شيء. لا
يريد إقناع أحد. لا يريد أن يشرح نفسه

رجالاً عرف قيمته أخيراً. عرف حدوده. عرف طاقته. وعرف أن
أقرب الطرق إلى السلام هو أن يتوقف عن خوض معارك لا
تخصّصه

لم أعد أريد أن أبدو قوياً. ولا أريد أن أتظاهر بأنني لست متعباً. أنا
إنسان... وهذا يكفي

أنا لا أريد أن أكون مثالاً لأحد، ولا قصة بطوله، ولا رواية انتصار
أريد فقط أن أكون أنا. بكل ما انكسر، وبكل ما التأم، وبكل ما تبقى
وهذا وحده... أجمل انتصار.....

الفصل الحادي عشر: خيط نجاةٍ اسمه الأمل

كنت أظن أن الأمل شيءٌ كبير، حدث عظيم، بابٌ يُفتح فجأة،
معجزةٌ تجلّى أمام العين وتغيّر كل شيء في يوم واحد
لكن الحقيقة كانت أبسط من ذلك بكثير
الأمل لم يكن صاحبًا. لم يكن بارزاً. لم يلمع كالفجر على قمم
الجبال
الأمل... كان خيطاً رفيعاً، يمتد من القلب إلى السماء، لا يُرى...
ولكنه لا ينقطع
كنت في أصعب الليالي، حين يضيق الصدر حتى لا يتسع للنفس،
أشعر بوجود شيء لا أعرف اسمه
شيء يقول لي: لا تسقط
ليس وعداً بأن الأمور ستتحسن قريباً، ولا تأكيداً بأن الغد أفضل
من اليوم، بل مجرد وجودٍ ناعم... هادئ... يضع يده على كتفي
ويقول
”أنا هنا“

ربما كانت تلك الدعوة القديمة التي قلتها بدموعٍ خفيفة:
يا رب... أنا تعبت
ربما كان صوت أمي في دعائهما الذي لم أسمعه، لكن الله سمعه

ربما كانت ذكري ضحكةٌ من أحد أطفالي علقت في قلبي مثل
بسمِ صغير

ربما كانت كلمة مرت صدفة، أو آية...

((وهو معكم أينما كنتم))

الأمل لم يكن حدثاً. كان استمرارية

كان أن أفتح عيني في الصباح رغم تعب الأمس. كان أن أرتب سريري وأغسل وجهي وأقول لنفسي: يوم آخر... لنكمله

كان الأمل حين ابتسمت رغم الثقل، وحين سامحت رغم الجرح،
وحين مشيت رغم التعب، وحين قلت: "الحمد لله" حتى وأنا لا
أعرف على ماذا أحمد

كنت أظن أن الأبطال هم الذين لا يتالمون، لكنني فهمت الآن أن
الابطال الحقيقيين هم الذين يتالمون... ويكملون

أولئك الذين يمسكون بالخيط الرفيع ولو انزلقت أصابعهم ألف
مرة

أولئك الذين يقفون بعد كل سقوط حتى لو كانت أرواحهم متعبة
أنا لم أنج لأن الطريق كان سهلاً. أنا نجوت لأن الأمل ولو كان
صغيراً رفض أن يتركني

اليوم... أنا لا أنتظر حدثاً كبيراً. أنا أحتفل بالتفاصيل الصغيرة

شهيق لا يوجع
لحظة هدوء بلا سبب
يوم مرّ دون انهيار
بسمة خرجت دون إذن
هذا... هو الفرج
ليس صاحبًا. ليس ملوّنًا. ليس رواية بطولية
الفرج... أحياناً هو أن تناول ليلتك خفيفاً دون حرب في صدرك
وهذا وحده نعمة

الفصل الثاني عشر: سلامٌ لا يشبه أحداً

لم أعد أبحث عن النهاية السعيدة. ولا عن الاعتذار الذي لم يأتِ، ولا عن التفسير، ولا عن الذين مشوا ولم يلتفتوا لقد أرهقني الركض، وأثقلني الانتظار، واستهلكتني المعارك التي خضتها وحدي وفي نهاية كل ذلك... وجدت نفسي أمام مرآة الروح، أتساءل ماذا أريد حقاً؟

لم أكن أريد العودة إلى الماضي، ولا استعادة من رحلوا، ولا إحياء ما مات

كل ما أردته... كان السلام
السلام الذي لا يعتمد على أحد، ولا يتأثر بما يحدث، ولا ينهار إذا انكسر العالم

السلام الذي يبدأ من الداخل
سلام يشبه شهيقاً عميقاً بعد بكاء طويل. يشبه يداً خفية تربّت على كتف القلب وتقول

"لقد عدت إليك"

وجدت السلام حين توقفت عن تبرير نفسي. حين توقفت عن الشرح. حين توقفت عن السعي وراء اعتراف أحد
وجدت السلام حين تركت الأشياء كما أرادها الله، لا كما أردتها أنا

وَجَدْتُهُ حِينَ فَهِمْتُ أَنَّ الْخسَارَةَ لَيْسَتْ دَائِمًا خسَارَةً، وَأَنَّ
الْذَهَابَ أَحْيَاً هُوَ أَصْدِقُ أَشْكَالِ الْحِمَايَةِ

وَجَدْتُهُ حِينَ تَوَقَّفْتُ عَنْ مَحاوْلَةِ تَبْدِيلِ قَدْرِي وَبَدَأْتُ أَرِي جَمَالًا
خَفِيًّا فِيهِ

وَفَهِمْتُ شَيْئًا صَغِيرًا... لَكِنَّهُ غَيْرُ كُلِّ شَيْءٍ
الْطَمَانِينَةُ لَا تَأْتِي مِنَ الْخَارِجِ. الطَمَانِينَةُ تُصْنَعُ فِي الْقَلْبِ... حِينَ
يَسْلِمُ اللَّهُ

حِينَ قَلْتَ: يَا رَبِّ... خَذْنِي حِيثُ تَرِيدُ. لَا حِيثُ أَرِيدُ
هَدَأْكُلُّ شَيْءٍ

الْعَاصِفَةُ لَمْ تَنْتَهِ فَوْرًا، لَكِنَ الصَدْرُ امْتَلَأَ بِسَكِينَةٍ لَا تُشَبِّهُ أَيِّ
سَكِينَةٍ. وَكَانَ اللَّهُ كَانَ يَقُولُ

"أَنَا مَعَكِ... وَقَدْ كُنْتَ مَعَكِ دَائِمًا"

لَمْ أَعْدْ أَحْتَاجْ أَنْ أَثْبِتَ أَنِّي قَوِيٌّ. وَلَا أَنْ أَنْكِرَ أَنِّي انْكَسَرْتُ. وَلَا أَنْ
أَشْرَحَ لِلنَّاسِ أَيِّ شَيْءٍ

أَنَا خَرَجْتُ مِنَ النَّارِ لِكُنِّي لَمْ أَهْرُبْ مِنْهَا. وَقَفَتْ فِيهَا، وَبَكَيْتْ
فِيهَا، وَتَعْلَمْتَ فِيهَا، وَخَرَجْتُ مِنْهَا وَأَنَا أَعْرَفُ نَفْسِي كَمَا لَمْ أَعْرِفَهَا
مِنْ قَبْلِ

وَالآن... قَلْبِي لَيْسَ فَارْغًا، لَكِنَّهُ مَرْتَبٌ

وفي داخلي كرسي صغير لا أجلس عليه مع أحد. ذلك المكان
مخصص لي... ولي وحدي

سلامي اليوم لا يشبه سلام الأمس. سلام الأمس كان أمنية.
سلام اليوم... هو يقين

أنا بخير. حتى لو لم يفهم أحد كيف. حتى لو لم أشرح. حتى لو لم
أظهر ذلك في وجهي

أنا بخير... لأن الله كان معي حين لم يكن معي أحد

الخاتمة

سلامٌ على من لم ينكسر... ولو انكسر ألف مرّة
سلامٌ على من مشى مكسوراً وما زال يمشي
سلامٌ على القلوب التي نزفت ثم أزهرت. على الأرواح التي
سقطت ثم نهضت
سلامٌ عليك يا عبد الله، وعلى كل من يشبهك

